فصول من تاريخ العصور الوسطى

النظم والطرق التجارية

بين الشرق والغرب قبل الحروب الصليبية

— ١ —

كان التجار الأوربيون خلال القرون الوسطى لا يفكرون الا في الذهاب الى المرافىء الشرقية للبحر المتوسط ليأتوا منها بالبضائع والسلع المختلفة التي كان يحتاج اليها أهل الغرب . وهذه المرافىء ذاتها هي التي كان يقصدها التجار في العصور الأولى وهي الاسكندرية وصور وبيروت وغزة . وفي هذه المرافىء كانت تتكدس السلع التي تحملها القوافل البرية والسفن الشراعية مجتازة المحيط الهندي والخليج الفارسي او البحر الأحمر . ولم تكن تتخطى السفن الصينية وقتئذ جزيرة سيلان . أما القوافل البرية فكانت تجتاز آسيا الوسطى الى الأراضي الصينية عن طريق خوطان وطورفان وخامل

وكانت القوافل التجارية في فجر الاسلام تجتاز جزيرة العرب من جميع نواحيها بدءاً من مرفإ عدن جنوباً ومن البحرين شرقاً ومن جدة غرباً الى ان تنتهي عند مدينة غزة . وحينما انتشر الاسلام في آسيا وإفريقيا كثر عدد الحجاج وكثر عدد السفن الشراعية الكبيرة التي أنشئت خصيصاً لنقل أولئك الحجاج الى بيت الله الحرام

ولما أنشأ العباسيون دولتهم على أنقاض الدولة الأموية أنشأوا عاصمتهم في وادي دجلة ليس لأسباب سياسية فحسب بل لعوامل اقتصادية ايضاً . فالسفن التي كانت تغدو وتروح في الخليج الفارسي أخذت تسير شط العرب وتتجه نحو بغداد ناقلة اليها منتجات الصين والهند . وبعد انشاء مدينة بغداد أخذ التجار يستوردون بضائع آسيا الصغرى عن طريق نهر دجلة المار من الأناضول وكانت السفن النهرية تنقل تلك المحصولات الى مدينة آمد التي تدعى الآن بديار بكر ومنها الى سائر البلدان الاسلامية في القطرين العراقي والشامي . وقد حفر العباسيون ترعة وصلت بغداد بوادي الفرات من جهة أخرى فنقلت البضائع الشامية في هذه الترعة الى كل من العراق وإيران . وهذه الترعة ظلت عامرة مدة طويلة ثم طمرتها الرمال بعد ان دالت الدولة العباسية

ان قصة السندباد البحري التي جاء ذكرها في كتاب الف ليلة وليلة لم تكن في الحقيقة الا مغامرات قام بها بحريون جريئون في أنحاء المحيط الهندي المختلفة ويظهر ان هؤلاء المغامرين رأوا في أثناء تجوالهم أموراً غريبة فنقلوها لأبناء وطنهم بلهجة جذابة. وآخر مدينة وصلها السندباد البحري في قصته المعروفة هي مدينة «كالا» الواقعة في شبه جزيرة مالاقة. ومنذ القرن الثامن الميلادي فتح مرفأ كتون الصيني للاجانب فذهب اليه فريق من التجار العرب وسكنوه. وحين نشبت ثورة في أواسط القرن الثامن لوحظ ان طائفة من رعايا الخليفة الأموي كانت تساعد عسكر الامبراطور المأجورين وكانوا من الفرس ويظهر أنهم فتكوا بالثائرين فتكاً ذريعاً وأحرقوا بيوتهم ومخازنهم ثم لجأوا الى مراكبهم التي أقلتهم بعيداً عن مواطن تلك الثورة. وهؤلاء لم يكونوا الا تجاراً من العرب او بحريين كانوا يشتغلون في سفن بعض المغامرين من العرب

وكان الفينيقيون أيام الامبراطور طُنغ قد ركبوا متن البحر بجرأة نادرة وانتشروا في المحيط الهادىء مسافات بعيدة ثم دخلوا المحيط الهندي وتوغلوا فيه حتى جزر ملايار الهندية ومنها انتقلوا الى النواحي العربية حتى وصلوا الخليج الفارسي

وفي النصف الاول من القرن التاسع ظهر مغامر عربي يدعى سليمان واخذ يجوب المحيطين الهندي والهادىء وينقل السلع التجارية من بلاد الصين والهند الى مرافىء الجزيرة العربية. وفي الوقت نفسه كانت السفن العربية تنقل البضائع من مرفأ (اوبولا) القديم الواقع على شط العرب تلك البضائع التي كانت تنقلها الى هذه المدينة سفن نهرية من بلاد الرافدين المختلفة وهذه السفن الشراعية الجسيمة كانت تسافر الى مرافىء الهند ثم تجتاز بحر البنغال قاصدة بلاد الصين

وعلى مرّ السنين ظهر منافس لمرفأ كتون الى الشمال منهُ على شاطىء الصين تعني مدينة (خان-تشو) الواقعة على خليج شنغهاي وعلى بضعة اميال من عاصمة الصوغ. وقد سكن في هذا المرفأ ايضاً تجار من العرب كان لهم قاض منهم يحكم بينهم وفقاً للشريعة المحمدية وينظر في أحوالهم الشخصية. وقد كان مسموحاً لهؤلاء التجار بالتنقل بين مدن الصين الداخلية والساحلية لتعاطي التجارة على ان يكون لديهم رخصة خطية من أي موظف صيني مسؤول. غير ان هذا التساهل لم يدم طويلاً اذ أصيبت البلاد بضائقة شديدة وبثورات دامية في اواخر القرن التاسع تخرّبت على أثرها طائفة من القرى والمدن فأصيب العرب من جراء ذلك بأضرار بليغة حملتهم على الهجرة الى مرفأ كالا الواقع في شبه جزيرة مالاقة وبهذه الهجرة انتقلت معهم الحركة التجارية في الشرق الأقصى فسمت منزلة مرفأ كالا وعرفت هذه المدينة بتجارة القصدير وما تقتضيه يستخرج من جزر صغيرة واقعة بالقرب من مالاقة

وعما تقدم تفهم علاقة العرب التجارية ببلاد الصين وقد وجد جامع قديم اكتشف كتابته أحد الآباء اليسوعيين وقرأها المستشرق السويسري العلامة (ماكس فان برشم) ففهم منها ان هذا الجامع بني سنة ٤٠٠ هجرية ثم جدد سنة ٧١٠ هـ .

وكان لمدينة عمان علاقات تجارية قديمة بالبلاد الهندية الا أن رحلات رجالها البحرية لم تكن خالية من الاخطار فكان يهاجمها قراصنة من الهنود اتخذوا وكراً لهم في جزيرة سوقوطرا على ان هذه الاعتداءات لم تمنع تجارة العرب من نقل المواد التجارية الى بلاد الشرق ثم تعود منها حاملة أهم ما تنتجهُ تلك البلاد الغنية .

***

وحين ملك العرب القطر المصري انشأوا بين هذا القطر ومراقىء جزيرة العرب علاقات تجارية ثم حفروا الترعة التي كانت قائمة بين مدينتي بابليون وتلزم وهي التي كانت عامرة في أيام الفراعنة فتمكنوا من ان ينقلوا كل ما تحتاج اليه مكة والمدينة من الأقوات الا أن الثورات الداخلية سببت اهمال هذه الترعة فسدتها الرمال على عهد السنين . ويقال انها تخربت نهائيًا سنة ٧٦٦ في أيام أبي جعفر المنصور . حينما ثار محمد بن عبد الله الحسني على الدولة العباسية في المدينة المنورة وجمع الجموع وتسمّى بالمهدي، فأهمل رجال هذه الدولة شؤون الترعة حتى لا ترسل الأقوات والذخائر الى ثوار المدينة العلويين

وفكر عمرو بن العاص في فتح ترعة السويس وفكر هرون الرشيد ايضاً في هذا الفتح الا ان كليهما عدل عن تنفيذ فكرته خوفاً من ان يستخدمها الاسطول البيزنطي ويهاجم منها بلاد الحجاز المقدسة . على ان القوافل التجارية كانت تنقل البضائع الخاصة بالقطر السوري من السويس الى مدينة الفرما خلال خمسة ايام او ستة . اما قوافل الحجاج السوريين فكانت تعود الى البلاد الشامية بعد انتهاء موسم الحج من الطريق التي تخترقها الآن السكة الحجازية . ولما كانت هذه السكة تمر بالقرب من فلسطين فقد كان فريق من الحجاج يمرجون على بيت المقدس ليزوروا معابدها المقدسة . وقد اعتاد مسلمو الديار الشامية زيارة بيت المقدس ايام موسم النبي روبين الذي يقام في اليوم الخامس عشر من شهر ايلول (سبتمبر) من كل سنة . اما باقي الحجاج فكانوا يفترقون في دمشق فيذهب حجاج العراق الى حلب ومنها الى مدينتي الرقة وباليس الواقعة على نهر الفرات ومنها الى الموصل وبغداد

وكانت السفن الشراعية في البحر المتوسط تسافر من الاسكندرية الى برقة والى سواحل بنغازي ومنها من مرفأ مصري الى آخر مارة بطرابلس الغرب والمهدية وهذه المدينة الأخيرة

كانت ميناء القيروان وقد اشتهرت بحركة تجارية عظيمة خلال القرن الحادي عشر الميلادي . ومن المهدية تذهب السفن الى دير المغرب الاقصى والى مرافىء الاندلس الزاهرة . اما مرافىء اوربا الجنوبية فلم يكن يقصدها من تجارة الغرب الا المغامرون منهم وكانوا يتعرضون لاعتداءات الفرنج ورغم العداء الذي كان مستحكماً بين الشرق والغرب ايام الحروب الصليبية فقد وجد من التجار المسلمين في بعض المدن الايطالية وأخصها مدينة بيزا . ولقد عثر على كمية من النقود الفضية الاسلامية في روسيا وفي بعض النواحي من بلاد اسكندناوا وفي أودية فولغا ودنيبر الروسية . وبعد الفرس وجد ان أقدم النقود هذه كان ضرب في نهاية القرن السابع الميلادي وأحدثها في أوائل القرن الحادي عشر . ووجدت دراهم عربية اخرى في بلاد السويد ضرب بعضها في سنة ٦٩٨ ميلادية اي في العهد الاموي والقسم الآخر في سنة ١٠١٠ م ايام آل بويه ببغداد . ويظن ان معظم هذه الدراهم كان مجيء به من بلاد خراسان . وقد درس المؤرخون هذه النقود وحاولوا تفسير العوامل التي أدت الى انتقالها الى بلاد البلطيق فقالوا ان رجال الشمال الذين كانوا يهاجمون بحراكبهم شطوط أوربا الغربية وحملات الصقالبة على شطوط بحر قزوين وهجمات النورمنديين على سواحل أسبانيا وأفريقية الشمالية كل ذلك يمكن ان يكون سبباً في انتشار هذه النقود ونقلها الى بلاد أوربا الشمالية . ولقد لاحظ المستر هايد مؤلف تاريخ الشرق التجاري في العصور الوسطى ان معظم هذه النقود وجدت مقصوصة او مثقوبة وهذا إما ان يكون نتيجة أعمال القراصنة بقصد النسلية وإما ان هذه القطع اعتبرت أجزاء لوحدة تلك النقود الاسلامية

***

ولم يعرف ان التجار العرب كانوا قد وصلوا في اتناء تجوالهم الى بلاد الشمال بل كانوا يركبون السفن في نهر الفولغا ويتقدمون فيها حتى مدينة (بلغاريا) وهي عاصمة الشعب البلغاري الذي ينتمي الى السلالة التترية — التركية — وكان يسكن في سهول روسيا قبل هجرته الى بلاد البلقان وكانت مدينة بلغاريا تقع قرب ملتقى نهر قوما بنهر ڤولغا بين مدينتي قزان وسيمبرسك فكان التجار العرب يسافرون الى مدينة بلغار ليشتروا من أسواقها الفرو والعنبر والجلود المدبوغة والسكوب كانوا حينئذ أمة اسكندناوية تحت قيادة أمير سويدي يدعى رويك وكانوا يشتغلون بنقل البضائع على نهر الفولغا وقد احتكروا تجارة الجلود والفرو في مدينة (ايتيل) المبنية على مصب النهر المذكور في بحر قزوين على أن التجار العرب كانوا لا يقتصرون بشراء الجلود والفرو والعنبر في مدينة ايتيل بل كانوا يتوغلون في ذلك النهر ليصلوا الى مصادر تلك البضائع المرغوبة

حتى أن الخليفة المقتدر بالله كان قد أرسل بعثة لهذه الغاية برآسة رجل يدعى ابن فضلان سنة ٩٢٠ ميلادية

والبهارات كانت مرغوبة جداً في البلاد الفرنسية ولربما كان لعلاقات الود والصداقة بين الخليفة وشارلمان دخل في رواج تلك البضاعة وفي توسع نطاق التجارة بين الشرق والغرب على أن هذه العلاقات كانت انقطعت بعد موت شارلمان بسبب الفوضى التي عمت القسم الغربي من البلاد الأوربية على أثر ذلك من جهة وبسبب اعتداءات النورمنديين المتتابعة على سواحل أوربا الغربية من جهة أخرى وذلك رغم سيطرة دولة الاندلس الاسلامية على خليج ليون وعلى ممرات جبال الالب الصعبة

لقد كان من العادة أن يتهادى الملوك في العصور الوسطى وكانت هدايا الخلفاء تتألف من حيوانات نادرة مثل الفيلة والسمادين ومن آلات ميكانيكية وقطع موسيقية وثريات وأقمشة حريرية وسرادق فخمة وأدوية وبهارات وعطور . أما هدايا الأباطرة فقد كانت تقتصر على أقمشة مختلفة الجنس واللون ولقد قيل أن شارلمان استفاد من علاقاته الطيبة مع الخليفة فأذن له بأن ينشيء مستشفى بالقدس لتمريض الحجاج الفقراء وأن يقيم سوقاً للتجار الى جانب هذا المستشفى وكان يتقاضى ضريبة سنوية قدرها جنيهان اثنان يدفعها كل تاجر اشترك بتلك السوق

وبعد موت شارلمان اضطر الحجاج النصارى الذين يريدون السفر الى فلسطين أن يبحروا من الموانىء الايطالية خوفاً من قراصنة البحر الذين كانوا يملأون القسم الغربي من البحر المتوسط . وكان الاتصال برجال البحر والتجارة من العرب في هذه الموانىء أسهل من سواها وفي أواخر القرن العاشر كان حاكم مرفأ باري البيزنطي يتعامل كثيراً مع المراقىء السورية حتى أن بطرس الناسك كان قد عاد من فلسطين قبيل الحروب الصليبية على احدى سفن مدينة باري التجارية . ومدينة باري نفسها كانت خضعت للسلطان الخليفة الفاطمي خمسة وعشرين عاماً (٨٤٢ — ٨٧١) فليس من المستبعد أن يكون الخليفة قد سمح حينئذ لتجارة باري أن يتجروا مع العرب في أسواقهم المختلفة . على أن هذا الاتجار لم يتناول مدينة باري فقط بل تناول سائر المدن الطليانية مثل مدينة سالرنو وامالفي ونابولي وغائت وذلك رغم خضوع هذه المدن حينئذ للحكم البيزنطي الاسمي

وكان التجار الطليان يبيعون الرقيق للعرب ويعقدون معهم معاهدات تجارية وكانت هذه العقود تنضب البابوات وتحملهم في حوادث كثيرة على اصدار الحرمان ضد تلك الجمهوريات الطليانية . فتجار امالفي كانوا يتجرون مع أهل إفريقيا الشمالية والنادقة أيضاً كانوا يبيعون الاسلحة والذخائر الحربية . وقد أراد الامبراطور البيزنطي (جنا زيمسز) سنة ٩٧١ أن

يمنع التعامل مع المسلمين وهدد رجال البندقية باحراق سفنهم فخضعوا وقتاً ما لأوامره وانتهوا من الاخبار مع العرب

***

والعلاقات بين العرب وجمهوريتي جنوى وبيزا خلال القرن العاشر كانت سيئة حتى أن العرب تمكنوا من احتلال جنوى ونهبها سنة ٩٣٥م . أما بيزا فقد ملكوها ونهبوها مرتين الأولى سنة ١٠٠٤ والثانية سنة ١٠١١ وعلى اثر ذلك اتحدت الجمهوريتان وتمكنتا من التغلب على العرب سنة ١٠١٦ وتمكنت جمهورية بيزا من امتلاك مدينة بون الجزائرية سنة ١٠٣٤ وأهم عمل قام به الطليان ضد العرب كان في صيف سنة ١٠٨٧ حينما ذهب اسطول طلياني مؤلف من سفن بيزا وجنوى وانباولي يقدر عدده بـ ٤٠٠ سفينة الى مدينة المهدية بتونس وامتلكها من حاكمها العربي تميم بن المعز ولم ينصرف هذا الأسطول عن المدينة الا بعد ان صالح تميم أهل جنوى ورضي بالشروط التي فرضت عليه وهي دفع غرامة حربية واطلاق سراح المسجونين النصارى والامتناع عن تقاضي رسوم جمركية على البضائع التي تنقلها السفن الطليانية . وفي تلك الآونة حاولت جمهورية بيزا امتلاك مدينة بالرمو عاصمة صقلية العربية فلم تفلح وظلت المدينة المذكورة عربية مدة اثني عشر عاماً اخرى الى ان جاء النورمنديون واحتلوها

وكان اليهود في هذه العصور الوسطى من العوامل التي سهلت الاتجار بين الشرق والغرب ويقول «ابن خورداذبة» ان التجار اليهود الذاهبون من فرنسا الى بلاد الصين كانوا يختارون احد الطرق البرية والبحرية الآتية

لقد كانوا يحملون بضائعهم الى مرفأ الفرما المصري ومنه يجتازون برزخ السويس خلال خمسة ايام الى ان يصلوا الى مدينة الفلزم ومنها يبحرون بمراكب شراعية الى بلاد المحيط الهندي

وكان يأتي فريق آخر منهم الى سواحل سوريا بتجارهم فينضمون الى القافلة البرية القادمة من انطاكية الى وادي الفرات والى بغداد ثم يواصلون السفر الى الهند والصين . وفريق آخر من اولئك التجار كان يخشى أخطار البحر فيختار الطرق البرية الطويلة بادئاً من مضيق جبل طارق وسائراً بشمال افريقيا وسوريا والعراق ومن هنا يجتاز القسم الجنوبي من ايران ويدخل الى أرض الصين عن طريق تركستان وطائفة اخرى من هؤلاء كانت تجتاز جبال الالب وهضابها وأودينها ثم جنوبي روسيا حتى تصل الى مدينة اتل الخزرية ومنها عن طريق بحر قزوين الى آسيا الوسطى من وادي جيحون وهذه أطول كثيراً من